الفصل الثالث

عصر الإمام ابن حزم الظاهري

تمهيد :

البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والأحداث التي يمر بها، لها أثرٌ كبير في حياته سواء أكانت تلك الأحداث المحيطة به سياسيةً، أم اجتماعيةً، أم علميةً .

" ولقد ثبت أن الظروف التي تحيط بالشخص والبيئة التي يعيش فيها لهما دخل كبير في تكييف حياته، وطبعها بطابع خاص، فالشخصية تتكون وتبرز متأثرة بالبيئة التي هي فيها ولا يلزم من هذا التأثر أن تتجاوب لروح العصر مجاوبة تامة بحيث لا تختلف عنها، بل إنَّ التأثر قد يكون بمخالفة الغير إذ أن البيئات تختلف بالنسبة للأشخاص الموجودين في عصر واحد "(١) .

فالإنسان ابن بيئته كما يقولون، يستمد منها مقومات شخصيته وعاداته وقيمه من المجتمع الذي يعيش فيه، لذا فإن دراسة العصر الذي عاش فيه ابن حزم من الأهمية بمكان لفهم شخصيته وتقويم إنتاجه، فليس من اليسير فهم ابن حزم منفصلاً عن عصره، فهو من أينع الثمرات التي جادت بها الأندلس .

فلقد عاش ابن حزم ما بين الربع الأخير من القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس الهجري، حيث عاش ابن حزم في الحقبة الواقعة بين سنتي ٣٨٤هـ - ٤٥٦هـ .

١- أحمد بن ناصر الحمد، مرجع سابق، صـ٩٥ .

وكانت بلاد الأندلس في تلك الحقبة الزمنية تنعم بالأمن والاستقرار والهدوء ورغد العيش، إلا أنَّ هذا لم يدم طويلاً، فقد اضطربت الأوضاع السياسية والاجتماعية، وسادت الفوضى أرجاء الأندلس في الثلاثةْ عقود الأخيرة من حياة ابن حزم .

ونشأ ابن حزم وسط هذه التقلبات السياسية، وتيارات الانحلال الاجتماعي التي كان لها أثر عميق على فكره، وكتاباته، وطِباعه، ومزاجه .

وبطبيعة الحال فإن سطور هذا الفصل لا تدافع عن ابن حزم وعصرهْ، وهي في الوقت نفسه لا تضعه في قفص الاتهام، بل هي محاولة للمعرفة والبحث والتقصي والتحليل، تهدف إلى الوقوف على صورة صحيحة حقيقية للمجتمع الأندلسي الذي نبت وتربي فيه ابن حزم، ومدى تأثر فكره التربوي في كتاب " المحلّى " بهذا المجتمع وتفاعلاته .

ولأن كثيرين من الكتَّاب والباحثين قد سبقوا في عرض الجوانب التاريخية للحياة السياسية، والاجتماعية، والعلمية لعصر ابن حزم بما يكفي، لذا يرى الكاتبُ أن يكتفي بذكر أبرز سمات كل جانب من الجوانب السابقة، دون الدخول في التفاصيل، مع الالتزام بالحقبة الزمنية التي عاش فيها ابن حزم من حياة الدولة الأموية، وعهد ملوك الطوائف، والتي تقع بين عامي ٣٨٤هـ و٤٥٦هـ وذلك لتجنب تكرار ما ذكره السابقون .

١ - الحياة السياسية :

تترك الأوضاع السياسية التي تكون في زمن معين وفي مكان معين أثراً بالغاً في شخصية أولئك الأفراد الذين عاصروها وعايشوها .

وشاءَ اللهُ سبحانه وتعالى أن يعيش ابن حزم في حقبة زمنية تموج أحوالها وتضطرب أوضاعها، وتتداخل حالاتها، وتكثر فتنها، وتتعدد أزماتها .

وكانت الأندلس قبل تلك الحقبة الزمنية تسودها حالة الاستقرار والسكون والبُعد عن القلاقل، وذلك في حكم المستنصر، ومَن كان قبله، وكانت نهاية حكم المستنصر بالله عام ٣٦٦هـ فخلفه على الحكم ابنه هشام بن الحكم المؤيد بالله وكان صغيراً حين تسلم مقاليد الحكم، فقد كان عمره آنذاك إحدى عشرة سنة أو أقل، وحاكمٌ هذا عمره لا يستطيع القيام بأعباء دولته، وتحصينها من المخاطر التي تحيط بها(١) .

وقبل الخوض في الحديث عن الحياة السياسية يشير الكاتبُ إلى أنه سيقدم نبذة مختصرة عن الوضع في الأندلس منذ الفتح الإسلامي وإلى عصر ابن حزم، مع التركيز على الحقبة التي عاشها ابن حزم، حتى يسهل ربط الأحداث وفهمها على نحو يسير.

فتاريخ دولة الإسلام في الأندلس يُعَدُّ من أطول وأخصب دول الإسلام عمراً وعبرةً، وأبلغها عظةً، وأكثرها دروساً وفوائد، فقد امتدت دولة الإسلام في الأندلس قرابة ثمانية قرون، مرت خلالها مراحل وأطوار بين قوة وضعف، ووحدة وتفرق، وقد قسَّمَ الباحثون حياة الدولة الأندلسية إلى عدد من المراحل، لكل مرحلةٍ سماتها وخصائصها الخاصة بها، والتي امتد أثرُها على حياة الدولة المسلمة، وقد كانت المحصلة النهائية لكل هذه المراحل، سقوط دولة الأندلس .

١- عبد الواحد المراكشي، مرجع سابق، صـ٧٢ .

ويمكن تمييز سبع مراحل تتطلي عصر ابن حزم، وهي :

أولا : مرحلة الفتح (٩٢هـ - ١٣٨هـ) :

وفي هذه المرحلة فُتِحَتْ الأندلس عام ٩٢هـ على يد أبطال الفتح الأوائل، موسى بن نصير، وطارق بن زياد، وعبد العزيز بن موسى. بعد معارك هائلة مع قوات القوط، فأصبحت الأندلس ولايةً إسلاميةً تابعةً للدولةِ الأمويةِ[١]. " غير أن النصارى آووا إلى ركن حصين في جنبها. فكان ذلك الركن كالشوكة في جنب الدولة، وحيث إن المسلمين لم يستأصلوه في قوتهم، فقد كان هؤلاء النصارى للمسلمين بالمرصاد، فإن رأوا فرصة انتهزوها للنيل من المسلمين "[٢].

وقد تعاقب في هذه المدة الزمنية القصيرة على ولاية الأندلس عدد كبير من الولاة، مما يوضح أنها كانت فترة توتر وعدم استقرار، فلم يكن الأمر مضبوطاً في الجملة بيد حازمة من قِبل أولئك الأفراد لضعفهم بالإضافة إلى بُعدهم عن مقر الخلافة وكون الأندلسيين من عناصر متباينة، فكثرت الخلافات والاضطرابات والفتن بينهم .

ثانيا : قيام الدولة الأموية عصر الازدهار (١٣٨هـ - ٢٣٨هـ) :

وفي هذه المرحلة توحدت الأندلس تحت قيادةٍ واحدةٍ، وأصبح لها قائدٌ واحدٌ وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل أو صقر قريش، وقد استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس الدولة الأموية من جديد ببلاد الأندلس، وقد كان مبدعاً ذكياً، فقد دخل الأندلس طريداً غريباً وحيداً فتمكن بصبره، وثباته وعزيمته، أن يضع لبنة دولة من أكثر دول الإسلام مجداً، وقد

١- عبد الرحمن علي الحجي، تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٣، سوريا: دمشق: دار القلم، ١٩٨٧م، صـ٤٧ .

٢- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آرائه وفقهه، مرجع سابق، صـ٩٢ .

قام الداخل بعديد من الأعمال الكبيرة من أجل الحفاظ على دولة الإسلام الوليدة من أهمها قمع محاولات الصليبيين من الفرنسيين والأسبان في الهجوم على الأندلس، ثم أوجد حالةً من الاستقرار والبناء والازدهار سنة ١٧٠هـ فأسس مسجد قرطبة، والذي ظل فترة طويلة مسجداً قبل أن يحول إلى كنيسة(١).

يقول عنه ابن حيان في نفح الطيب : " كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، كثير الحزم، نافذ العزم، لم ترفع له قط راية علي عدو إلا هزمه، ولا بلد إلا فتحه، شجاعاً، مقداماً، شديدَ الحذر، قليلَ الطمأنينة، لا يخلد إلي راحة، ولا يسكن إلي دعة، ولا يكل الأمر إلي غيره، كثير الكرم، عظيم السياسة، يلبس البياض، ويعتم به، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويصلي بالناس في الجمعة والأعياد، ويخطب بنفسه، جنَّد الأجناد، وعقد الرايات، واتَّخذَ الحُجَّابَ والكُتَّابَ، وبلغت جنُوده مائةَ ألف فارس "(٢).

ويبدو أن عبد الرحمن الداخل قد جمع كل مقومات القائد الفاتح العظيم، التي جعلته يؤسس دولة جديدة مستقرة في رحاب الأندلس، وبما فعله من أعمال عديدة من أجل الحفاظ على هذه الدولة، التي كان من أهمها حالة البناء التي قام بها في الأندلس .

ومن أهم الأعمال التي قام بها بناؤه لمدينة قرطبة، التي حرص علي جعلها صورة من دمشق في منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية، المتزينة بالأزهار والورود ونافورات المياه، كما أرسل لجلب أشجار الفاكهة من الشام، مثل التين والرمان

١- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس. الخلافة الأموية والدولة العامرية، ط٤، مصر: القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، صـ٥٧٠ .

٢- المقري (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ت١٠٤٠هـ)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: يوسف البقاعي، لبنان: بيروت: دار الفكر، ١٩٩٨م، ج٤، صـ٥٠ .

وأحاطها بسور ضخم عظيم، وحفر قناة تمدها بالماء العذب، وشيَّد بها المباني الضخمة والحمامات، وأكثر من البساتين على ضفة الوادي الكبير[1].

وعلى نهجه سار ولده هشام الذي تولى الحكم (١٧٣هـ - ١٨٠هـ)، وقد كان رجلاً صالحاً فقيهاً، وفي عصره انتشر مذهب الإمام مالك بالأندلس كلها، وكان الجهاد والتدين هما طابع عهد هشام بن عبد الرحمن. تبع هشام بن عبد الرحمن ولده الحكم، وكان يحب حياة الترف، وجعل من حوله حاشيةً متكبرةً متعاليةً جعلته قاسياً عنيفاً مهملاً لشؤون الرعية، لذلك قامت عليه عدة ثورات، ومن بعده جاء أمراء ضعاف انحدرت الأمور على أيديهم من سيئ إلى أسوأ[2].

ثالثا : عصر التدهور الأول (٢٣٨هـ-٣٠٠هـ) :

في هذا العصر تعاقب على حكم الأندلس ثلاثة من الأمراء، وهم محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨هـ - ٢٧٣هـ)، والمنذر بن محمد (٢٧٣هـ - ٢٧٥هـ)، وعبد الله بن محمد (٢٧٥هـ - ٣٠٠هـ)، واتَّسَمَ هذا العهد بكثرة الفتن والاضطرابات، وكثرة الخارجين على السلطة المركزية، حيث كوَّن العربُ دويلات داخل الدولة الأم أهمها: دولة بني حجاج في إشبيلية وكوَّنها أباء قبيلة لخم اليمنية. وقد بنى إبراهيم بن حجاج هذه الدولة على منوال الدولة الأموية، من قصر إمارة، وبلاط، وحاشية وحراسة، وجيش، كما قام البربر بخلع طاعة أمراء بني أمية واستقلوا بالولايات الغربية. وقد مهدت هذه الفتن الداخلية السبيلَ لقيام ثورة ضخمة في الأندلس عرفت بثورة المولدين؛ وهم الذين ولدوا في دولة الإسلام بالأندلس، ولكن كانت أصولهم أسبانية نصرانية، وهؤلاء وإن كانوا قد نشأوا وترعرعوا في ديار الإسلام

١- أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط٣، مصر: القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م، صـ٩٠ .

٢- محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، صـ٥٧٢ .

بالأندلس، ودانوا به، إلا أن قوميتهم القديمة ظلت ملء قلوبهم، وظل حلم أسبانيا القديمة يراودهم حتى أتتهم الفرصة، فثاروا ثورة عنيفة يقودهم رجلٌ شديدُ البأس عظيم الكفر والحقد، اسمه : عمر بن حفصون، وكان قد ارتدَّ عن الإسلام، وقاد جموع المولدين طيلة ثلاثين عاماً يحارب المسلمين، ويمزق في دولة بني أمية التي انحصرت في قرطبة وجوارها فقط(١) .

لذا سُمي هذا العصر بعصر التدهور الأول؛ لأنه شهد انتكاسةً كبرى في شتى شؤون الحياة، فساد التفرق والانقسام والتقاتل والفساد، وكثرت الاضطرابات وتكوَّنت الدويلات، فكان هذا العصر عصر تدهور بمعنى الكلمة .

رابعا : عودة القوة وإعلان الخلافة (٣٠٠هـ - ٣٦٦هـ)

وقد حكم هذه المرحلة رجلان لا غير، أولهما : عبد الرحمن الناصر - وهو ثامن أمراء بني أمية -، وقد دامت خلافته نصف قرن من الزمن بلغت فيها بلاد الأندلس الذروة من العز والسؤدد والرفعة، قضى فيها عبد الرحمن الناصر على الاضطرابات، وأدَّبَ الخارجين عليه وقهر أعداءه، وأرهب الأسبان، فعمَّ الرخاء والأمن أرجاء الأندلس وما تبعها من بلاد المغرب إلى أن توفي سنة خمسين وثلاثمائة(٢) .

وكان من حظ الأندلس أن دامت ولايته خمسين سنة نست ما أصابها من الشدائد والاضطرابات، فقد أعاد خلالها الهيبة والقوة لدولة الإسلام بالأندلس، وقضى على الأخطار الداخلية، المتمثلة في الإمارات المستقلة فأعاد الجميع للدولة الأم .

أما الخطر الخارجي والمتمثل في العدوان الصليبي القادم من الشمال، فقد أبدى الناصر قدرةً فائقةً في التصدي لكل المحاولات التوسيعية من جانب الأسبان،

١- عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، صـ١٦٣ .
٢- الحميدي، مرجع سابق، صـ٢١ .

وظل يواجههم من سنة ٣٠٥هـ حتى سنة ٣٣٩هـ إلى أن دان له الجميعُ، بالتحالف تارةً، وبالإجبار تارةً أخرى[١].

وبهذا أصبح عبد الرحمن الناصر " أميراً على الأندلس وضبط الأمور ووحد الكلمة، وكان يلقب بالأمير وعلى هذا جرى بنوه من بعده فلم يُدعَ أحدٌ منهم بأمير المؤمنين تأدباً مع الخلافة بمقر الإسلام في المشرق، حتى كان عبد الرحمن الناصر هو ثامن أمراء بني أمية بالأندلس فتسمّى بأمير المؤمنين لما رأى من خلفاء بني العباس وغلبة الأعاجم عليهم، وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم، وذلك في عام عشر وثلاثمائة تقريباً "[٢].

وكان عبد الرحمن الناصر هو أول مَن أعلن نفسه خليفةً شرعياً من أمراء الأندلس، وكان ما دفعه لذلك ظهور الدولة الخبيثة العبيدية الفاطمية بالمغرب، وقد تلقَّبَ حكامها بالخلفاء، وهم يطمعون في الاستيلاء على العالم الإسلامي بأسره، بما في ذلك الأندلس، وكانت الخلافة العباسية وقتها تمر بحالة صراع على السلطة، وضعف شديد بسبب تسلط الأتراك عليها، ومن أجل ذلك أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفةً للمسلمين في رمضان سنة ٣١٦هـ، ومن أبرز أعمال الناصر الحضارية والعمرانية بناؤه لمدينة الزهراء سنة ٣٢٥هـ[٣].

وثانيهما : الحكم بن عبد الرحمن الذي تولى الحكمَ بعد أبيه، وتلقب بالمستنصر، وكان محباً للعلم والعلماء، وقد ورثَ دولةً قويةً ثابتةَ الأركان من أيام أبيه، فتفرغ للعلمِ وقراءةِ الكتب، وحرص على شرائها من شتى بقاع الأرض، وكان يرسل للعلماء من كل الأمصار، ويستقدمهم إلى قرطبة التي تحولت إلى منارة

١- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ٢٨٤ .
٢- الحميدي، مرجع سابق، صـ١٢،١٣ .
٣- عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، صـ٣٠٣،٣٠٤ .

بجامعة عالمية من كثرة مَن قصدها من العلماء، وقد جمع الحكم من الكتب ما لم جمعه أحد من قبله من الملوك، والتي تقدر بأربعمائة ألف مجلد[١].

وكان حسن السيرة وسار على نهج وسيرة أبيه ولكن مدته لم تطل كأبيه، "حيث تُوفيَّ سنة ٣٦٦هـ"[٢]، وبوفاته انقضى العصرُ الذهبي للأندلس وبدأ عصر الفوضى والاضطراب والتغلب على الخليفة، ولم يأتِ بعده من الأمويين خلفاء كالسابقين إلا اسماً فقط.

خامسا : عصر الدولة العامرية (٣٦٦هـ - ٣٩٩هـ) :

بعد وفاة الحكم بن عبد الرحمن تولى الأمر بعده ابنه هشام المؤيد[٣] وكان دون البلوغ فمن الطبيعي أن يستبدَ بالأمرِ أحدُ الأوصياء على الخليفة الصغير فظهر المنصور بن أبي عامر، وضبط الأمور بقوة شخصيته ودهائه، ونجح في السيطرة على مقاليد الأمور، ورسم لنفسه خُطةً بارعةً للقضاء على الخصوم والمنافسين، واستبد بالأمر عن هشام وتسمى بالحاجب، وأجْبَرَ الأندلسيين على الخضوع لهذه الحكومة العسكرية الاستبدادية التي اعتمد في تكوينها على عناصر من غير العرب واتخذ منهم الوزراء، وكان منهم أحمد بن سعيد والد علي ابن حزم[٤].

وكان أحمد بن سعيد والد ابن حزم من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه، وقد استوزره المنصور قبل سائر أصحابه في سنة ٣٨١هـ[٥]، وكان المنصور من أعظم السلاطين دهاءً وحزماً وهيبةً في القلوب، فكان يُجَهِّز الجيوش ويغزو بنفسه حتى

١- عبد الحليم عويس، مرجع سابق، صـ٣٦ .
٢- الحميدي، مرجع سابق، صـ١٦ .
٣- في عهده وُلِدَ ابن حزم، حيث كان مولده عام ٣٨٤هـ .
٤- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ٣٧٤ .
٥- محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، صـ٥٧٨ .

إن غزواته تجاوزت الخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، ولم تُنكَّسْ له رايةٌ ولا فل له جيش وما أصيب له بعث وما هلكت له سرية[١].

بهذه السياسة استطاع المنصور أن يؤسس لنفسه سلطاناً ويعزز صولجاناً[٢] إلى أن تُوفيَّ سنة ٣٩٢هـ وقد دامت أيامه سبعاً وعشرين سنة[٣]. ثم آلت الأمور بعد المنصور إلى ولده المظفر، فجرى في الغزو والسياسة والنيابة عن هشام المؤيد وحجابته مجرى أبيه، وفي عهد المظفر كانت أول تجارب ابن حزم في المجتمع الأندلسي، حيث استمر والده وزيراً للمظفر وقد اصطحب ابنه عليًّاً (ابن حزم) إلى حفل استقبال أعَدَّهُ المظفر بمناسبة عيد الفطر، وكان عمر ابن حزم آنذاك ١٢ عاماً، وقد كانت أيام المظفر أعياداً دامت سبع سنين إلى أن مات[٤] سنة ٣٩٨هـ.

فخلفه على الحجابة أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر، وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه، ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة، فحمل الخليفة المستضعف هشاماً المؤيد على العهد له بالخلافة بعده، فنقم عليه أهل الدولة، ذلك وثارت ثائرةُ الأمويين، وكانت فتنةٌ حُلع فيها هشام المؤيد وسجن وبويع محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء، ولقبوه المهدي بالله، وكان عبد الرحمن (الناصر) – الحاجب – في إحدى غزواته، فلمَّا عاد لتلافي الأمر وجد أنصاره قد انصرفوا عنه وثار به جندُه وقتلوه سنة ٣٩٩هـ[٥]، وعند هذا التاريخ انتهى أمر الدولة العامرية.

١- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ٣٧٥ .
٢- الحميدي، مرجع سابق، صـ١٣٢،١٣١ .
٣- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ٤٠٠ .
٤- الحميدي، مرجع سابق، صـ١٣٢ .
٥- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ٤٠٢ .

ويبدو أن بوفاته انقلبت أفراح أهل الأندلس إلى أتراح، ووقعت الأندلسُ مرةً أخرى في شرك العصبيات المقيتة التي كانت السببَ الأولَ لانهيارها. وتشرذمتْ الدولةُ الأم لعدة دويلات صغيرة، يقود كلَّ دويلةٍ متغلبٌ أو طامعٌ لا يبالي إلا بمصالح نفسه وعائلته، وهذا مَهَّدَ السبيلَ لمرحلةٍ هي الأسوأ والأخطر في تاريخ الأندلس.

فكانت وفاة عبد الرحمن الناصر – الحاجب – فاتحةً لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسي وأشدها غموضاً واضطراباً، وبذلك دخلت الأندلسُ في المرحلة الثانية من مراحل الضعف والتدهور، وهي الفترة التي غلبت عليها الاضطرابات والفتن، وكان أول الفتن سقوط دولة بني عامر.

سادسا : سقوط الخلافة الأموية (٣٩٩هـ - ٤٢٢هـ) :

بدأ المهدي يشدِّد الوطأةَ على البرابرة؛ لأنَّ الدولة الأموية كانت تعتد عليهم مظاهرتهم العامريين وتنسب تغلبهم إليهم، فأمر أن لا يركبوا ولا يتسلحوا، وردَّ بعضَ رؤسائهم من باب القصر وألحق بهم ما أزعجهم عن المدينة، فثاروا وهاجموها وخلعوا المهدي فَفَرَّ، وبايعوا من بعده سليمان بن الحكم بن الناصر الذي تلَقَّبَ بالمستعين سنة ٤٠٠هـ، ولكن المهدي لم يستكن فذهب إلى ملك قسطيلة الأسباني واستعان به، فاسترد ملكه وخرج المستعين من قرطبة، وقامت موقعة أخرى بين البربر ومعهم المستعين، والمهدي ومعه النصارى فانهزم المهديُّ وقُتِلَ فأخرجوا هشاماً المؤيد، وأعادوا الأمر له مرةً ثانية سنة ٤٠٣هـ. فناوأه المستعينُ فعاد إلى قرطبة بجيش من البربر من نفس السنة وقتل هشام المؤيد سراً، فبدأت

المهازل تترى بين المتقاتلين على الإمارة فتوزع الملكَ البرابرةُ، وجعلوه قسمةً بينهم واستقل كلٌّ منهم بإقليم[١].

حتى استطاع بنو حمود البربر أن ينتزعوا الخلافة، وأن يتزعموا حكومة قرطبة لفترة قصيرة، ثم تطورت الحوادث بسرعة وعاد بنو أمية لاسترداد الخلافة وكان ذلك بظهور عبد الرحمن بن محمد ببلنسية سنة ٤٠٨هـ وتلقب بالمرتضى وخرج لقتال بني حمود، وكان ابن حزم من المؤيدين له، وقد سار مع جيش المرتضى لكن الجيش انهزم في موقعة غرناطة[٢]، ونجا المرتضى، ثم قُتِلَ غيلةً، وَأُسِرَ ابن حزم، ثم أُحْبِلَ سبيلُه فلجأ إلى شاطبة[٣].

وبقيتْ قرطبة في يد بني حمود حتى قام عبد الرحمن بن هشام أخو المهدي يطلب الخلافة لنفسه، واستطاع الحصول عليها سنة ٤١٤هـ وتسمى بالمستظهر[٤] واستقدم ابن حزم وأقامه وزيراً له، ولم تدمْ خلافته أكثر من شهرين، ثم تعاقب على الخلافة من بعده خلفاء مستضعفون من بني أمية تارةً، ومن العلويين تارةً أخرى إلى أن بُويعَ هشام بن محمد المعتد بالله سنة ٤١٨هـ، فاستوزر ابن حزم مرةً أخرى[٥]، وهذا كان الخليفة الأخير الذي وزر له ابنُ حزم، وهذه المرة كانت آخر عهده بالسياسة، فلم يعمل بها بعد ذلك أبداً، واتجه إلى العلم ودروسه.

ترك ابن حزم السياسة يائساً من اجتماع الأمر لأحدٍ آخر، لقد زهَّده فيها في شبابه فتن البربر، وكثرة الاضطرابات، وفشل محاولته هو في إصلاح الأمر وعودة

١- الحميدي، مرجع سابق، صـ١٨.
٢- لسان الدين بن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ت٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مصر: القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج٤، صـ١١١.
٣- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ١٣٢.
٤- الحميدي، مرجع سابق، صـ٢٤.
٥- ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج١١، صـ٢٣٧.

لاستقرار بمعاونته بعض الأمراء الأمويين، فانصرف عن السياسة إلى العلم، فكان للعلم وحده أكثر من سبع وثلاثين سنة .

وبموت المعتد بالله سنة ٤٢٢هـ أعلن وزيرُهُ أبو حزم بن جهور انتهاء الخلافة لأموية وسقوطها لعدم وجود من يستحقها، وأنه سيحكم الدولةَ جماعةٌ من الوزراء على نظام شبه جمهوري، وبانتهاء هذه الفترة انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة واستقل كلُّ أميرٍ بمقاطعته وأعلن نَفْسَهُ ملكاً عليها، ودخلت الأندلسُ النفقَ المظلمَ الذي لم تخرج منه بعدها أبداً[١].

وبعد أن كان نجم الأمويين في صعود صار إلي أفول، تغرب شمسهم عن الأندلس، ويُسدل الليلُ خيوطه علي أضوائهم، يتصدع بنيان الدولة، وينخر الخلاف فيأكل أساسها ويقوِّضُ تماسكها، فتمسي أثراً بعد عين، وتصمت حضارةٌ دامت سبعة قرون، وتركن إلي سكون أبدى تظلله أصداء ماضٍ غابر بغير رجعة .

سابعا : عصر ملوك الطوائف (٤٢٢هـ - ٤٨٣هـ) :

لم تكد الخلافةُ الأمويةُ تسقط حتى انفرط عقدُ الدولةِ الأم، وانقسمت إلى دويلات صغيرة، وتقاسم العربُ والبربرُ والصقالبةُ أوصالَ الأندلس، وتفككت الأواصر بين كلِّ دويلة وأخرى، حتى صارت أقاليم يتصارع كل إقليم مع بقية الأقاليم، ونشبت الصراعات والخلافات وعادت الفتن والاضطرابات، وقد حكم تلك الحقبة العصيبة نحو عشرين أسرة مستقلة يطلق عليهم ملوك الطوائف .

من أشهرهم[٢] :

أ- دولة بني جهور في قرطبة .

١- عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، صـ٣٢٣ .
٢- عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، صـ٣٢٤ .

ب- دولة بني عباد[1] في إشبيلية .

ج- دولة بني مناد في غرناطة .

ولقد كان ملوك الطوائف ملوكاً ضعافاً، غلبت عليهم الأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود، كلُّ ملك لا همَّ له سوى السيطرة على إقليم يظفر به، ونسوا في غمار هذا دينهم ووطنهم، إضافةً إلى كونهم طغاةً مستبدين في منتهى القسوة مع رعيتهم .

في ظل هذا العصر المضطرب المليئ بالأحداث السياسية عاش ابن حزم فشاهد انحلالَ الدولة الأموية واستقلال كلِّ والٍ بولايته، وشاهد الفترة الأولى من ملوك الطوائف، فرأى بعينيه شدةَ أحوالها، وكثرة اضطرابها وتقلبها، وعظم فتنتها فكلما انطفئت نارٌ أوقدت أخرى، هذا مما أثر تأثيراً عظيماً على جميع أبناء قرطبة، والذين كان من جملتهم ابن حزم .

ومن ثمَّ تركتْ هذه الأوضاع آثاراً، يتضح من خلالها الأثر العميق الذي تركه الإخفاق السياسي الذي منيت به الأندلسُ في نفس ابن حزم، فكان البديل عن كل ذلك، تلك النظرة الزاهدة المعتدلة التي وجهت خطواته، وحددت غاياته، على نحوٍ واضحٍ، وهي التوجه الكلي إلى الآخرة، والانكباب على دراسة ومدارسة العلم وتسخير جميع القوى والروافد في خدمته .

٢ـ الحياة الاجتماعية.

الحياةُ السياسيةُ في أيِّ شعبٍ صورةٌ صادقةٌ للحالة الاجتماعية التي تنعكس عليها، لأن عناصر تكوين المجتمع لها دورٌ بارزٌ ومهمٌ في مسرح السياسة وتقرير مصير المجتمع إلى الاستقرار أو الانهيار في كثير من الحالات .

١ـ أحرق ثائيهم المعتضد بن عباد كتب ابن حزم، راجع : الطاهر أحمد مكي، مرجع سابق، صـ٩٥.

ويرى الكاتبُ تناول الحياة الاجتماعية في الأندلس من خلال تناوله للعناصر الآتية :

أولا : وصف الأندلس .　　**ثانيا** : فضل أهل الأندلس .

ثالثا : زي أهل الأندلس .　　**رابعا** : طبع أهل الأندلس .

خامسا : المرأة في المجتمع الأندلسي .

سادسا : طبقات المجتمع في الأندلس .

سابعا : عناصر السكان في الأندلس .　　**ثامنا** : لغة أهل الأندلس .

وفيما يلي يحاول الكاتبُ إلقاءَ الضوءِ على هذه العناصر بشيءٍ من الإيجاز على النحو الآتي :

أولا : وصف الأندلس :

أسهب الواصفون عند وصفها، وتلجلج لسانهم أمام حسن صفاتها، فلو تغنيت بعليب هوائها، فما بالك بجناتٍ غرست في أرضها، وعمارة شهدت بسموقِ سماواتها، وحضارة بسطت في جوانبها، فزادتها بهاءً، وتألقت ظلال أضوائها، فهي الجمال المصفى والحسن المشتهى .

وُصفت الأندلس بحسن هوائها، واعتدال مزاجها، ووفرة خيراتها، فقد " خصَّ اللهُ الأندلس من الريع، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وصحة الهواء...وشهامة الطباع، وابيضاض ألوان الإنسان "(١) .

١- المقري، مرجع سابق، ج٢، صـ٨.

ثانيا : فضل أهل الأندلس :

ولا يخفي علي لبيب ما لأهلِ الأندلس من فضائلَ يصعب - مع التحري - الإحاطة والإلمام بها؛ فهُم إلي العرب يمتون صلةً ونسباً، وعنهم أخذوا عربية اللسانِ فلا يلحدون إلي عُجمةٍ ولا يركنون إلي لكنةٍ، وهم إلي طبعهم أقرب وإلي خصالهم أنسب، تجاوزوا العرب إلي غيرهم من الأمم فأخذوا ما عند الهنديين من ولع إلي العلوم، ولم يتركوا ما عند البغداديين من ظرفٍ وذكاءٍ عُرفوا به، فقرائحهم متوهجةٌ وأذهانهم بنور المعرفة متقدةٌ، هذا مع أخذهم ما عند اليونانيين من ضروب المعرفة بالزراعة والفلاحة فأجادوا فيها وأحسنوا الصنيع، فكانوا في أخذهم عن تلك الأمم ما جعلهم يحوزون قصب السبق ففاقوهم علماً ومعرفةً وفضلاً.

يقول المقري : " أهل الأندلس عربٌ في الأنسابِ، والعزةِ، والأنفةِ، وعلوِ الهمم وفصاحةِ الألسن، وطيبِ النفوسِ، وإباءِ الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية، هنديّون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها، وضبطهم لها، وروايتهم، بغداديّون في نظافتهم، وظرفهم، ورقة أخلاقهم ونباهتهم، وذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم، يونانيّون في استنباطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم البساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع، أحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب...إنَّ أهل الأندلس صينيّون في إتقان الصنائع العلمية، وإحكام المهن الصورية أي الآلية، تركيّون في معاناتهم الحروب، ومعالجات آلاتها، والنطر في مهماتها "(١).

١- المقري، مرجع سابق، ج٤، صـ١٤٧،١٤٦.

ثالثا : زي أهل الأندلس :

وتميز الأندلسيون بزيٍ يحقق لهم خصوصية موطنهم ويميزهم عن غيرهم فكان للباس علامة ومزيّة علي أهل الأندلس وإشارة تدل قاطني أرجائها سواء شرقها أم غربها، وفي ذلك يقول المقري : وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقهياً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك[1]، وقد كان اليهود يلبسون نفس الثياب التي يلبسها المسلمون حتى عصر الموحدين، حيث ألزموا أن يلبسوا ثياباً مميزةً لدواعي أمنية، بعد أن أثاروا الكثيرَ من الإساءاتِ والفتنِ ضد المسلمين[2].

وذلك دليل توخيهم الأمن في بلادهم ففرقوا في اللباس بينهم وبين غير المسلمين، فبه عُرفوا وعن طريقه وُسِموا.

رابعا : طبع أهل الأندلس :

من طبع الأندلسيين نبذهم لظاهرة التسول ومحاربتهم لها، وفي ذلك يقول المقري : " وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب، سبُّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد في الأندلس سائلاً إلا أن يكونَ صاحبَ عذرٍ "[3].

فقد اشتهر الأندلسيون بالاحتياط وتدبير المعيشة والمروءة، فهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال، فلذلك قد ينسبون إلى البخل أحياناً.

١- المرجع سابق، ج١، صـ١٨٢.

٢- خالد الخالدي، اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس (٩٢-٨٩٧هـ)، فلسطين: غزة: دار الأرقم، ٢٠٠٠م، صـ٢١٣.

٣- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ١٨١.

ومن طبعهم أيضاً محافظتهم على نظافة ملابسهم، يقول المقري : " وأهل الأندلس من أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يغرسون...وفيهم مَن لا يكون عنده إلا ما يقوته في يومه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبؤ العين "(١) .

فعاش المجتمع الأندلسي حياة عزوجاه ورفعة لمدة طويلة، طغت فيها مظاهر البذخ والنعيم على المجتمع، فشُيِّدَتْ القصور، وجُمِّلَتْ المنتزهات، واتَّسَعَتْ الطرقات، وغيرها .

ويخص المقري قرطبةَ بقولِهِ : " ومن مظاهر الحياة في قرطبة وهي إحدى مدن الأندلس، ظرف اللباس، والتظاهر بالدين، والمواظبة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم، وكسر أواني الخمر حينما تقع عين أحد من أهلها عليها، والتستر بأنواع المنكرات، والتفاخر بأصالة البيت والجندية والعلم، وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، وصار ذلك من آلات الرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة ليقال : فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره "(٢) .

فكانت قرطبة مركزاً مهماً للتقدم العلمي والفني والحضاري، فكانت ملتقى الشعراء والأدباء والفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث، كما كانت في الوقت نفسه أكثر بلاد الأندلس كتباً ومكتبات .

١- المرجع السابق، ج١، صـ١٨٣.
٢- المرجع سابق، ج٢، صـ٨ .

خامسا : المرأة في المجتمع الأندلسي :

كان للمرأة مكانتها في المجتمع الأندلسي، وشأنها شأن الرجل بلا أي تفاوت من الناحية الإنسانية، وذلك في حدود ما أوجبه الإسلام، على أساس طبيعة المرأة وفطرتها، وكان بعضهن يتمتعن بنفوذ كبير في الحياة العامة السياسية والمدنية .

يقول محمد أبو زهرة : " وقد ظهر في حياة الأندلس عنصرٌ مهم ألا وهو بروز نساء في مجالات العلوم المختلفة الشرعية منها وغيرها، فكان منهن العالمات والأديبات والشاعرات، فالشعر يجري على ألسنةِ النساء كما يجري على ألسنة الرجال، بل لقد كان من الجواري الشاعرات عددٌ كثيرٌ، كان من بينهن مَن يُجدن العلوم، ويتكلمن فيها كلام المتخصصين المتفرغين لها "(١).

وقد تأثرت المرأة عامةً بهذه الأجواء مما جعلها تتحرر من القيود المهينة، التي قد تمنعها من التعليم في المدارس، فالآباء في الأندلس يهتمون أنفسهم بتعليم بناتهم

لكن هذه المكانة المرموقة للمرأة كانت قبل عصر ملوك الطوائف، غير أن هذه المكانة امتهنت في عصر الطوائف باسم الفن، حيث كانت قصور الأثرياء مثوًى لفنون الغناء، والرقص والموسيقى، وما يدخل في بابهما من صور الترف، حيث كان هؤلاء الأثرياء يتنافسون في اقتناء الفتيات الحسان البارعات في العزف والغناء ويبذلون في ذلك الأموال الطائلة(٢).

ويبدو أنَّ عصرَ ملوكِ الطوائفِ لم يكنْ انتكاسةً في تشرذم النواحي السياسية فقط، بل حمل هذا العصر مساوئ عديدةً من ضمنها تدني مكانة المرأة في المجتمع الأندلسي الذي نظر إليها نظرةً متحررةً من كل مظاهر الامتهان والدونية .

١- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آرائه وفقهه، مرجع سابق، صـ١٠٨ .
٢- خالد الخالدي، مرجع سابق، صـ٤٦.

سادسا : طبقات المجتمع في الأندلس :

إن المتصفح للكتب التي دونت تاريخ المجتمع الأندلسي يجد أمراً جلياً في ذلك المجتمع، ألا وهو تكوينه من طبقات عديدة، مع تباين الملل واختلاف النحل .

والمجتمع الأندلسي ينقسم إلى ثلاث طبقات، وهي : الطبقة العليا، والطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا، وقد كانت متمثلةً في مدينة قرطبة، حيث كانت هناك أحياء ثلاثة مخصصة للطبقة العليا وهي : الرُصافة، والزاهرة، والزهراء، أما بقية الأحياء فكانت للطبقتين الوسطى والدنيا، وتقوم عظمة قرطبة - مسقط رأس ابن حزم - الحقيقية على أهل الطبقة الوسطى المُكوَّنة من الصنَّاع، والعمّال، والعلاب، وصغار الفقهاء، والموظفين، والكتّاب[1] .

لكن هذه الطبقات ليست منفصلةً انفصالاً كلياً عن بعضها البعض، فهذا يخالف طبيعة الإنسان، فالإنسان كائنٌ اجتماعي يحتاج إلى الآخرين أيّاً كانت طبقاتهم، وهذا الاحتياج يتمثل في وجود الاختلاط بين الطبقات كلها، سواء أكان هذا الاختلاط بالمصاهرة أو بالتبادل التجاري أو بغيره من مظاهر الاختلاط .

سابعا : عناصر السكان في الأندلس :

كان المجتمع الأندلسي يعج بالسكان من الأجناس المختلفة، لكن الشيءَ المَيِّزَ لهذا المجتمع أنَّ كلَّ سلالة أو عنصر من عناصر السكان كان له خصائصه وسماته الخاصة .

فكان هذا المجتمع يموج بعناصر مختلفة جمعها المكان، فكان فيهم العرب الخُلَّصُ، وهم الذين كان لثقافتهم وللغتهم ولأخيلتهم ولصورهم البيانية السلطان

١- عبد الحليم عويس، مرجع سابق، صـ٤٥ .

لكامل، لذا كان للأندلس مظهرٌ أدبي وفكري واحد وحدّته تلك اللغةُ الساميةُ لغة لقرآن الكريم[١].

وكان فيهم البربر، وكانوا غالبيةَ الجيش حين الفتح الإسلامي للأندلس[٢] وقد كان منهم من له مقام مذكور في الفتح، وفيهم حدة طباع، وفيهم نفرة شديدة أحياناً[٣]، ولذلك كانوا هم وقود الفتن والاضطرابات وموقديها.

وكان في ذلك المجتمع الصقالبة، ومَن اعتنق الإسلام من سكان البلاد الأصليين، ومن بقي على ديانته ذميّاً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم[٤]، وأطلق عليهم المُعاهدون أو أهل الذمة وكان لهم دورٌ مهمٌ في الأندلس، حتى كانوا يقاربون المسلمين في الحياة الاجتماعية، إذ تمتعوا بكثير من التسامح الديني والسياسي[٥].

وكان فيهم السود، وهو أقل الأجناس تقريباً، وقد اتخذ منهم الخلفاء حرسهم الخاص، فتزايدوا في البلاد، وقد أكثر منهم المنصور بن أبي عامر لاشتهارهم بالقوة والاحتمال[٦].

ثامنا : لغة أهل الأندلس :

قد كان للغة القرآن الكريم الدورُ البارزُ والمهمُ في صياغة الوجه الحضاري الراقي للأندلس، حيث انصهرت كل عناصر سكان أهل الأندلس، وأنتجت مجتمعاً أندلسياً رائعاً مميزاً، مهتمين باللغة العربية فقهاً، وفهماً، وشعراً، ونثراً.

١- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، مرجع سابق، صـ١٠٦ .
٢- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ٢١٥ .
٣- الطاهر أحمد مكي، مرجع سابق، صـ١٣.
٤- أحمد بن ناصر الحمد، مرجع سابق، صـ١٠٤ .
٥- عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سابق، صـ٢٨٤ .
٦- عبد الله بن إسحاق سماورو، "آراء ابن حزم الظاهري (٣٨٤-٤٥٦هـ) في التفسير جمعا ودراسة من سورة التوبة الآية ١٠٤إلى نهاية سورة النور ومجموع المسائل ١٠٥"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٥هـ، صـ١٦ .

يقول ابن بسام : " ومازال في أفقنا هذا الأندلس القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين، وأئمة النوعين، هم ما هم : طيب مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقق، لعب الدُّجى بجفون المؤرَّق، وحَدَوا بفنون السحر المنمق، حداء الأعشى ببيان المحلق، فصبوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم، وباهوا غرر الضحى والأصائل بعجائب الأشعار والرسائل؛ نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كُثيّر ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرو ما عوى ولا نبح "(١).

ومن أجل إعجاب ابن بسام بمحاسن أهل الأندلس الكثيرة ومآثرهم الحميدة ألَّف كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة "، وقد ذكر فيه أيضاً قدوم أبي علي القالي وتعجبه من ذكاءِ الأندلسيين، بل وتركه المباحثة والمناقشة معهم بقوله لهم : " إن علمي علم رواية، وليس بعلم دراية، فخذوا عني ما نقلت "(٢).

" ولذلك فنحن نجد أن الكتب التي اختصت بتراجم الأندلسيين تذكر لنا كماً هائلاً من أدبائهم وشعرائهم ومثقفيهم على تباينهم واختلافهم، فبينما تجد الأمير الشاعر، وتجد الوزير العارف، تجد الفقير المعدم لا يقل عنهم شيئاً، ولا ينقص عنهم قدراً "(٣)، وذلك لأن من المعلوم أن الاهتمام باللغة العربية له أكبر الدور في وعي المجتمع، ونضج تفكيره، كما أن بعده عن لغته سبب رئيسي في انعدام الثقافة واضمحلال المعرفة .

١- ابن بسام، مرجع سابق، ج١، صـ١٢،١١ .

٢- المرجع السابق، ج١، صـ١٥ .

٣- علي بن جريد بن هلال العنزي، "آراء ابن حزم الظاهري في التفسير جمع ودراسة من بداية سورة التوبة إلى نهاية آية ١٠٣ من السورة نفسها"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ صـ٢١ .

وهكذا كانوا أهل الأندلس ذلك المزيج الذي ازدهرت به الحضارة فأحيا الآداب والفنون والعلوم، وكانت اللغة العربية وعاء ذلك الازدهار الحضاري .

وفي ظل هذا الوسط الاجتماعي الذي جمع بين العناصر المختلفة، والمظاهر المتضاربة، والطبقات المتباينة، نشأ ابن حزم، فقد تأثر بهذا الجو الاجتماعي وما به من تفاعلات، " يقول المتخصصون في دراسة شخصيته : إن ذلك الجو الاجتماعي كان له أثر في نفس ابن حزم وفي فكره، فقد كان من آثاره في نفسه أن اجتمع فيه جفوة اللفظ أحياناً مع رقة الطبع، وإن كان منها الشاعر الذي يذكر الغزل والمحبين، ويكتب تلك الرسالة القيمة في الحب كتابةَ مَن ذاق وطعم، لا وصف من رأى فقط، وإن كان عفيفاً نزيهاً إلا عن الحلال "(١).

وكان لذلك المجتمع أثره في تفكيره، فقد اتخذ مادة للدراسة والتحليل والموازنات، وإن رسالتيه (طوق الحمامة) و(مداواة النفوس) مملوءتان بنتائج دراساته النفسية لذلك المجتمع الذي كان يموج بالعناصر المختلفة، والمنازع المتباينة، والمظاهر المتضاربة(٢).

٣ـ الحياة العلمية.

امتاز العصر الذي عاش فيه ابن حزم بالازدهار العلمي، والنهضة الفكرية وكثرة الإنتاج الأدبي وغزارته، فقد وجد في ذلك العصر عدد كبير من العلماء الأجلاء ذوي الآفاق الواسعة الذين لا يقتصرون في دراساتهم على المذاهب الفقهية فحسب، بل كانوا مع ذلك أدباء ومؤرخين، كل ذلك رغم الزعازع والاضطرابات السياسية .

١- عبد الله بن إسحاق ممادورو، مرجع سابق، صـ١٧ .
٢- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، مرجع سابق، صـ١٠٣ .

فما حلَّ ببلاد الأندلس من الاضطراب السياسي والفتن لم يكن عاملاً في ذهاب العلم وقلة العلماء، فإن عصر ابن حزم كان عصرَ العلمِ حقاً في بلاد الأندلس فإن بني أمية اهتموا بالعلم ونشره، والناس على دين ملوكهم، فأقبل الناس في تلك البلاد على العلم والجد في تحصيله .

فقد كان عصر الخلافة الأموية في الأندلس، يمثل الانطلاقة الواسعة في ميادين الحضارة والبناء الفكري، وكان للاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي أثرٌ واضحٌ في انصراف الرعية نحو ميادين النشاط الحضاري بمختلف وجوهه، فلم يقتصر دور الأندلسيين في حفظ العلوم على ترديد ما أخذوه عن المشارقة، بل تعدَّى ذلك إلى مرحلة النمو والتطوير، وبرهنوا أنهم لا يمتلكون روح المثابرة والاستنباطِ والجدة والابتكار، في مختلف ميادين المعرفة، وأثبتوا لغيرهم من المسلمين في مختلف الأقطار أنهم لا يقلون في عطائهم العلمي عنهم[1] .

فالكثير من خلفاء بني أمية في الأندلس من أهل العلم والأدب...فعبد الرحمن الداخل كان عالماً وأديباً شاعراً، ومحمد بن عبد الرحمن كان محباً للعلوم ومؤثراً لأهل الحديث، وقد ناصرَ بقيُّ بن مخلد لما دخل الأندلس بكتاب مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وأنكر جماعة من أهل الرأي على بقيٍّ ما فيه من الخلاف واستشنعوه ومنعوا من قراءته، فاتصل بقيٌّ بالأمير محمد فاستحضره وإيَّاهم واستحضرَ الكتابَ كلَّه، وجعل يتصفحه جزءاً جزءاً إلى أن أتى على آخره، وقد ظنوا أنه يوافقهم في الإنكار عليه، ثم قال لخازن الكتب هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه فانظر في نسخةٍ لنا، ثم قال لبقيٍّ : انشر علمك وارو ما عندك من الحديث واجلس للناس حتى ينتفعوا بك، ونهاهم أن يتعرضوا له[2] .

١- سعيد عبد الله صالح البشري، الحياة الطبية في عصر الخلافة في الأندلس، السعودية: مكة المكرمة، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٣٩١ .

٢- الحميدي، مرجع سابق، ص١١ .

وهذا دليلُ علمٍ واهتمام وعناية من الخلفاء بالعلم وأهله وحَثٌّ على طلبه فالعالمُ عندهم معظمٌ ومقدرٌ ومكرمٌ.

وامتاز الحكام الأمويون بقربهم للعلماء والأدباء والشعراء، وأجزلوا لهم لعطايا، مما نَشَّطَ الحركة العلمية، وجعل كثيراً من العلماء المشرقيين ينتقلون إلى بلاد المغرب والأندلس، وخاصةً في عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم الذي أنشأ المكتبات، وأحضر الكتب التي ظهرت في المشرق، والتي كانت بدار بني مروان، حيث بلغ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعاً وأربعين فهرسةً، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء لدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافعة جلبت إليه بضائعه من كل قطر، حتى اجتمعت في الأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله، ولا من بعده، وبقيت محفوظة حتى سنة ٤٠٣هـ، وهو وقت الفتنة التي اجتاحت قرطبة، فنُهِبَتْ هذه المكتبةُ، وتناثرت في أيدي الناس إلا أنها لم تحرق بنار ولم تغرق بنهر، وقد اطلع ابن حزم على هذه المكتبة الضخمة مما أثرى من ثقافته في شتى العلوم التي كانت نتاج عصره(١).

وفي وصف حال أهل الأندلس في العلم يقول المقري: وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرصُ الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويريا بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس؛ لأن هذا عندهم في غاية القبح، والعالم عندهم معظم من العامة والخاصة، يشار إليه، ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك...وقراءة القرآن بالسبع، ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونقٌ ووجاهةٌ، والمنتشر عندهم من المذاهب هو مذهب مالك،

١- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آرائه وفقهه، مرجع سابق، صـ١١٢ .

وعلم الأصول عندهم متوسط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة. والشعر عندهم له حَظٌّ عظيم. وللشعراء من ملوكهم وجاهة[1].

ولعلَّ أبلغ تعبير وأصدق تصوير لذلك ما كتبه ابن حزم في رسالته فضائل الأندلس وأهلها، فعلى الرغم مما اتسمت به هذه الرسالة من إيجاز، فإنها قد انطوت على تاريخ شامل للفكر الأندلسي، والآداب الأندلسية حتى أوائل القرن الخامس الهجري[2].

والحقُّ أنَّ الفضلَ في تلك الروح العلمية التي أظلت الأندلس يرجع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي كان عهدُهُ بدايةً مجيدة لعصرٍ عظيمٍ ازدهرت فيه العلومُ والمعارفُ والآدابُ، وانصرف العلماء فيه إلى تحصيل العلم وتصنيف الكتب في شتى حقول المعرفة.

فهو الذي رفع للعلم صرحاً باذخاً فأغدق العطايا على العلماء، وأوسع لهم مجالِسَه وشجَّعهم على دراسة سائر العلوم الدينية وغيرها كالرياضيات والفلك، كما أشرك بعضاً من علماء اليهود في الثقافة الأندلسية فبدأت في عهده دراسة التوراة والتلمود، وتكوَّنت في قصر الخليفة الأندلسي العظيم مكتبةٌ كبرى كانت هي الدليل الواضح على الدرجة العليا التي بلغتها الثقافةُ الأندلسيةُ في عهده، وكان من حظ الأندلس أن دامت خلافته خمسين سنة[3].

ثم إنَّ أكثر الفضل يرجع إلى ابنه الحكم الذي كان محباً للعلوم، مكرماً لأهلها، جمَّاعاً للكتب في أنواعها مما لم يجمعه أحدٌ من الملوك مثله، وفيه يقول ابن حزم: " كان رفيقاً بالرعية، محباً للعلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم، وأخبرني

١- المقري، مرجع سابق، ج١، صـ٢٠٥.
٢- زكريا إبراهيم، مرجع سابق، صـ٢١٢.
٣- سعيد الأفغاني، مرجع سابق، صـ١٠.

تليد الفتى وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط "[1].

وعنه يقول ابن خلدون : " وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث في كتاب " الأغاني " إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، وكان نسبه في بين أمية، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر بن عبد الحكم، وأمثال ذلك، وجمع في داره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده "[2]. فلا مبالغةَ إذا اعتبر هذا الخليفة بجهوده العلمية رائداً للنهضة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس .

ثم لَمَّا تغلب المنصور بن أبي عامر على الدولة في عهد هشام المؤيد، كان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلاله العلمية اللامعة، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية، وكان عالماً متمكناً في الشريعة والآداب بارعاً في النثر والنظم[3] فكان محبًّاً للعلم طالباً له مُقَدِّراً لأهله .

١- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦ هـ)، جمهرة أنساب العرب، نشر وتحقيق وتعليق: إ.ليفي بروفنسال، مصر: القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥م، صـ١٠٠ .

٢- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن ولي الدين بن محمد ت ٨٠٨ هـ)، العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مصر: القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، (د.ت)، ج٤، صـ١٤٦

٣- محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، صـ٧٠٣ .

وقد بلغت الحركة الأدبية في عهده منزلةً رفيعةً، إذ كان يوليها رعايته واهتمامه، ثم خلفه ابنه عبد الملك الذي كان خيرَ حافظ لقيادة المسيرة العلمية بعد والده[١].

وقد استمر الازدهار العلمي في عصر ملوك الطوائف بالرغم من الاضطرابات السياسية وفساد الحياة الاجتماعية، فإن كل عاصمة من عواصم الملوك تمتعت بمميزات لم تنعم بها غيرها، حسب قدرة كل ملك فأخذ يجتذب لعاصمته من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء[٢]، " ولعل من أبرز المظاهر التي يمكن تسجيلها في عصر ملوك الطوائف، أن ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم المطلق واستهتارهم وانخذالهم أمام النصارى، فكانوا من حماة العلوم والآداب، وكان معظمهم من أكابر الأدباء والشعراء، وكانت قصورهم منتديات زاهرة، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون "[٣]، فإذا كان هذا حال ولاة الأمور مع تحملهم أعباء الملك، وتوليهم أمور القيادة، فكيف كان حال عامة الناس ؟!.

ومن المعلوم أن ابن حزم وُلِدَ وعاش في مدينة قرطبة، وقرطبة هي دار ثقافة الأندلس، حيث الموقع الرائع الذي تمتاز به، وحضارتها الساحرة، وجمالها الباهر، ووجوها الآسر.

يقول عنها ابن بسام : " وحضرة قرطبة، منذ استفتحت الجزيرة، هي كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر درر القرائح، ومن أفقها طلعت

١- سعيد عبد الله صالح البشري، مرجع سابق، صـ٨٠ .
٢- محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، مصر: القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٢م، صـ٤١١ .
٣- عماد جميل عبد الرحمن عبيد، مرجع سابق، صـ١٥

نجوم الأرض، وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انتشات التأليفات الرائعة، وصنفت التصنيفات الفائقة "[1].

وهذا نصٌ يوضح ما كانت عليه حال قرطبة، وحال الناس الذين كانوا يسكنونها، فقد كانت أرض ذلك القطر الأندلسي وكل بلاد وأراضي الأندلس مليئةً بالعلماء الذين كانوا على درجة كبيرة من النضج والتفكير العلمي، فقرطبة منبع العلماء، ومنها تنفجر أنهار العلوم، والعلم في قرطبة أصيل له ماضي تليد، ممتد الجذور منذ أن فتح الله سبحانه وتعالى على أهل الإسلام الأندلسَ، فكانت مرسى لأصول العلم وقائدةً لدفةِ المعارفِ والعلومِ.

فكان بها جمع من العلماء في القرنين الرابع والخامس الهجريين، قد أوجدوا فيها بيئة علمية ممتازة، وصفهم ابن حزم بأنهم ليسوا أقل من العلماء الموجودين في المشرق، حيث لا يوجد عالم من مفاخر الشرق إلا كان له نظير من مفاخر الأندلس[2].

ويذكر ابن بسام أبرز الأسباب التي أثرت ذلك المجتمع علمياً بقوله: "والسبب في ذلك، وتبريز القوم قديماً وحديثاً هنالك على مَن سواهم؛ أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على أهل البحث والطلب لأنواع العلوم والأدب، وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرقٍ كريم "[3].

فهذه البلاد كانت مصدر العلم والثقافات، والبلاد إنما تسمو بأهلها، فلما انتقل أصحاب هذه الفضائل، انتقلت فضائلهم معهم، وانتشرت خصالهم

١- ابن بسام، مرجع سابق، ج١، صـ٣٣ .
٢- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آرائه وفقهه، مرجع سابق، صـ٩٨ .
٣- ابن بسام، مرجع سابق، ج١، صـ٣٣ .

بانتشارهم، وهذا سببٌ رئيسي في رقيّ وازدهار هذه البلاد، إضافةً إلى اهتمام ولاة الأندلس أنفسهم بالعلم والعلماء.

وبالجملة فقد حفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتّاب والشعراء، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين يرتفعون إلى الذروة في تفكيرهم ومستواهم العلمي الرفيع، ابن حزم الذي كان آيةً عصره في نضج الذهن ودقة البحث وعمق التفكير.

وإذا علمنا حال ذلك المجتمع واهتمامه بالعلم والمعارف، علمنا يقيناً أثره على شخصية ابن حزم العلمية، وهذا واضحٌ بيّنٌ في جُلّ مؤلفاته.

٤ـ أثر ظروف عصره في تكوين فكره.

لم يكن من الغريب على ابن حزم أن يتأثر في تفكيره وأسلوب حياته بما اعتور بلاده من تقلبات وما اختلف عليها من أحداث جعلته لا يستقر بمكان، وقد انعكس ذلك على حياته الفكرية فاتسعت آفاقه فألَمَّ بالكثير من العلوم والمعارف فهو الإمام المحدث والفقيه المجتهد وهو الأديب الشاعر الفلسفي المنطقي والمؤرخ العالم بالأنساب، فكان دوحةً وارفةَ الظلال قد بسقت في مهد العلم ونمت في معدنه وتغذت من ينبوعه، وبذلك نستطيع أن نقول إنه توافرت له أسباب المعرفة كاملة، وكان لما عاني من التشريد والنفي والاشتراك في المؤامرات والتدبيرات التي لم تنجح من جراء الخيانات من ذلك المجتمع عضب اللسان ينازل العلماء والفقهاء ويتحدى بجدله العنيف آراء وعقائد في الفقه والفلسفة والدين فقوبل ذلك من خصومه بالاضطهاد ورموه بالضلال، فلم يثن ذلك عزمه ولم يحد من إقدامه، فهو المفكر الذي يتحمس لدينه لا تأخذه في الله لومَةُ لائمٍ إلى أن مضى لسبيله[1].

١- زكريا إبراهيم، مرجع سابق، صـ٢٥.

- تأثره بالأوضاع السياسية :

بعد أن استعرض الكاتبُ الأوضاع السياسية في عصر ابن حزم بشكل موجز، يمكن الإشارة إلى مدى تأثر ابن حزم بهذه الأوضاع، وذلك في النقاط الآتية :

١- اصطدم ابن حزم بالسياسة من صغره، فقد وُلِدَ في الثلث الأخير من أيام وزارة أبيه .

٢- ولأنه كان من أسرة لها شأن عظيم في السياسة، فقد تولى ابن حزم الوزارة ثلاث مرات لثلاثة من خلفاء بني أمية، هم :

أ/ عبد الرحمن بن محمد، الملقب بالمرتضى، في عام ٤٠٨هـ .

ب/ عبد الرحمن بن هشام، الملقب بالمستظهر، في عام ٤١٤هـ .

ج/ هشام بن محمد، الملقب بالمعتد، في عام ٤١٨هـ .

٣- تعرض ابن حزم للأسْرِ والسجن نتيجةً للحروب التي خاضها مع خلفاء بني أمية .

٤- انتهى حكم الدولة الأموية في الأندلس بموت هشام بن محمد سنة ٤٢٢هـ، وتوالى ملوك الطوائف على قرطبة، وكان منهم المعتضد بن عباد الذي أحرق كتب ابن حزم .

٥- المحن السياسية التي عصفت بالأندلس، وأطاحت ببني أمية لصالح الطوائف، انعكست على حياة ابن حزم فكراً وسلوكاً، ووظائف ومراتب .

٦- لقد تأثر ابن حزم بالحالة السياسية في كتاباته ومؤلفاته، حيث إنه ألَّف مؤلفات تتناول عرضاً للحياة السياسية في الأندلس، مثل : رسالة نقط العروس من تواريخ الخلفاء، وفي أمهات الخلفاء، وفي جمل فتوح الإسلام .

٧- أُضطهد ابن حزم في أغلى شيءٍ عنده، حينما أحرق المعتضدُ بنُ عباد كتبه؛ بسبب تبيين ابن حزم لفرية المعتضد .

ب- تأثره بالأوضاع الاجتماعية :

بعد أن استعرض الكاتبُ الأوضاع الاجتماعية في عصر ابن حزم بشكل موجز، يمكن الإشارة إلى مدى تأثر ابن حزم بهذه الأوضاع، وذلك في النقاط الآتية :

١- أدى اختلاط المسلمين بالنصارى إلى وجود الجدل بينهم، خاصةً عندما ضعف شأن الأمراء المسلمين، ولقد كان لذلك أثره في فكر ابن حزم ومؤلفاته .

٢- وجود كثير من العناصر المختلفة في المجتمع الأندلسي من عرب، وبربر، وصقالبة، ومَن اعتنق الإسلام من سكان البلاد الأصليين، ومَن بقي على ديانته ذميّاً، والسود، أدّى إلى تنوُّع الحضارات والثقافات وإثراء المجتمع الأندلسي، مما أثر على أبناء الأندلس جميعهم ومن بينهم ابن حزم .

٣- نبغت روح الإصلاح في ابن حزم إثر معايشته للمتناقضات الاجتماعية، فكان يحاول البحث عن حلول لعلاج الأمراض الاجتماعية، وإصلاح ما فسد من الأخلاق، كما جاء في كتابه (الأخلاق والسير في مداواة النفوس)

٤- وجود عنصر اجتماعي في الأندلس لم يكن في غيرها من البلاد الإسلامية بمقدار ما كان فيها، وهو ظهور نساء كثيرات أديبات وشاعرات، فكان لهذه البيئة الناعمة تأثيرُها في تربيته وتوجيهه؛ فقد كان يفيض بالأحاسيس نحو الجمال ولكن في دائرة الحلال لا يعدوها .

٥- على الرغمِ من كثرة وتنوُّع سكان الأندلس، فإنَّ اللغة العربية كانت هي العنصر الموحد بين الشعوب، وكان لذلك تأثيرُه الواضحُ في كتابات ابن حزم التي تمتاز بسلامة التعبير وبلاغة وفصاحة العبارة .

٦- كانت منتزهات قرطبة كمثيلاتها من مدن الأندلس تغصّ باللهو الماجن، والعبث المنحرف[١]، ولم يكن لذلك أثره على ابن حزم، بل كان صاحبَ همةٍ عاليةٍ، وسيّر جاد، وهذه هي صورةٌ صادقةٌ لفضيلةٍ قويةٍ في مجتمعٍ مائجٍ بالأهواءِ والمنكراتِ .

ج- تأثره بالأوضاع العلمية :

بعد أن استعرض الكاتبُ الأوضاع العلمية في عصر ابن حزم بشكل موجز، يمكن الإشارة إلى مدى تأثر ابن حزم بهذه الأوضاع، وذلك في النقاط الآتية :

١- عناية الأمراء الأمويين بالعِلم، وظهر ذلك في :

أ. إكرام العلماء وتوقيرهم، وإغداق الأموال عليهم، مما جعل كثيراً من علماء المشرق ينتقلون إلى الأندلس؛ نشراً للمعارف وطمعاً في العطايا .

ب. الاهتمام ببناء المكتبات، وتوفير الكتب في مختلف مدن وأقاليم الدولة، ووجود منافسات علمية بين المدن الأندلسية المختلفة، وأيها أكثر علماً ومعرفةً .

٢- ازدهار العلوم، وكثرة العلماء، ووفرة التأليف، فكان من نتائج تلك الحركة العلمية بروز علماء أجلاء كان على رأسهم ابن حزم الذي أثرى المكتبة الإسلامية بغزير علمه، وتنوع مؤلفاته .

١- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، مرجع السابق، صـ١٢٥ .

٣- اعتناء كثير من الأسر في الأندلس بجمع الكتب على اختلاف أهدافهم فمنهم من يجمعها لا لما اشتملت عليه، بل لملء فراغ في الخزانة (المكتبة) ومنهم مَن يجمعها للقراءة والنقد والتمحيص كابن حزم، ومنهم مَن يجمعها كي يذيع خبره بين الناس .

٤- وجود الخزانة التي أنشأها عبد الرحمن الناصر، الذي تولى الحكم نحو خمسين سنة، وقد حوت أعظم الكتب، ولا ريبَ أن ابن حزم اطلع على ما فيها من كتب، ونهل من مواردها العذبة، لأنها بقيت محفوظة إلى أيام الفتن التي قامت في قرطبة من سنة ٣٩٩هـ إلى سنة ٤٠٣هـ[١] .

٥- وجود الصراع بين المسلمين والفرق الأخرى أدى إلى تنشيط الحركة الفكرية في الأندلس .

٦- لم تتأثر الحركة العلمية في الأندلس عند مجيء ملوك الطوائف، بل نهجوا منهاج الأمويين فنهض الأدب والعلم في عصرهم، وكثر الإنتاج الأدبي والعلمي .

٧- تلقى ابن حزم العلم بكل الوسائل المعروفة في تربية الحضارة الإسلامية فقد تعلَّم من المسجد، والمكتبة، والمناظرة والمساجلة، والمنتديات، وقصور الأمراء، وانعكس هذا الثراء المعرفي في قرطبة والأندلس بعامة على فكره وانسكب داخل شخصيته .

١- المرجع سابق، صـ١١٢ .